مجلة الرائد

العدد : ٢٣٣ الموافق في ذو القعدة ١٤٢٢ هجري ٢٠٠٢/١ ميلادي

عنوان المقال : الاستشراق وأثره في الفكر والسياسة	الكاتب : د. صلاح الدين النكدلي

ما هو الإستشراق ؟

الإستشراق : عبارة عن تيار علمي فكري سياسي اقتصادي غربي النشأة ، يهتم بدراسة حضارات الشرق وأديانه وثقافاته وتاريخه ولغاته وآدابه وعاداته وتقاليده ، ويحاول التعرف إلى كل ما يمت بصلة إلى الشرق ، وبخاصة العالم الإسلامي .

- والهدف من هذه الدراسات هو:الإسهام في بلورة وصياغة المواقف والتصرفات الغربية تجاه الشرق .
- لا تعرف بداية زمنية للاستشراق يصح التعويل عليها ، ويشير عدد من الباحثين إلى أن مفهوم « الإستشراق » قد انتشر في أوروبا الاستعمارية مع نهاية القرن الثامن عشر ، علماً بأن الاهتمام بالتراث الشرقي " الإسلامي " قد بدأ منذ ظهور الإسلام ، وكانت البدايات محاولات لفهم الإسلام وطريقة انتشاره ، ثم تطور الأمر إلى ترجمة الكتب من اللغة العربية ، وبخاصة في مجال العلوم الطبيعية كالطب والرياضيات والفلك ، ثم توسعت الدراسات ، وتعددت الاهتمامات ، وتنوعت الاختصاصات وفقاً للحاجة التي تدعو إليها - في الأعم الأغلب - رغبة الساسة وأرباب المصالح ورجال الدين .

بواعث الإستشراق:

درج مؤرخو الإستشراق من المسلمين على ذكر أربعة دوافع كانت وراء بروز الحركة الإستشراقية والإنفاق عليها بسخاء ، وهي :

① الباعث الديني : وكان يرمي إلى تحقيق هدفين :

الأول : تشكيك المسلمين بمبادئ الإسلام وقيمه وشريعته .

الثاني : حماية النصارى من التأثر بالفكرة الإسلامية عن طريق تراكم معلومات معالجة بطريقة بعيدة عن الخطاب الديني ، وتتوشح بالعلمية والحياد .

② الباعث السياسي : ويهدف إلى أمرين :

الأول : الحصول على معلومات تمكّن الساسة من تصور واقع الشرق ، فهذا شرط صحةٍ للتعامل الجاد مع شؤون العالم الإسلامي .

الثاني : كشف الثغرات التي يمكن الولوج منها إلى داخل حصون المسلمين .

③ الباعث التجاري : والقصد منه واضح ، ويتركّز في ساحتين :

الأولى : معرفة الثروات ومواطنها والشعوب التي تحيط بها .

الثانية : تهيئة الأجواء لتصريف البضائع التي تنتجها مصانع أوروبا .

④ الباعث العلمي : والذين كانوا يتحركون بدوافع علمية بعيداً عن البواعث الدينية والسياسية والتجارية يشكلون رقماً محدوداً ، وهؤلاء كان لهم دور فيه إيجابيات ، ومعظمهم أنصف الإسلام والمسلمين ، وإن كان بعضهم - على الرغم من إخلاصه - لم يتحرر من تأثيرات ثقافة بيئته ، فجاءت نتائجهم متأثرة برواسبها . وقاد البحث العلمي الخالص عدداً من الباحثين المستشرقين إلى اعتناق الإسلام والتفرغ للدعوة إليه وبيان حقائقه .

آثار الحركة الإستشراقية :

كانت آثار المستشرقين خيراً في جانب وشراً في جانب آخر ؛ فمن الآثار الإيجابية نذكر :

- نشر التراث الإسلامي ، وجزء كبير منه نشر محققاً ، وقد ساعدهم على ذلك انتشار الطباعة ، ووضع أوروبا يدها على كمية هائلة من مخطوطات العالم الإسلامي ، ونقلها إلى مكتباتها !!
- تأليف الكتب حول الإسلام والحضارة الإسلامية والآداب .. وكان لها دور ثقافي علمي ، على الرغم من المآخذ على عدد كبير منها ، مثل : " دائرة المعارف الإسلامية " و " المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي " ، و " تاريخ الأدب العربي " .. ويذكر أن الكتب التي ألفت عن الإسلام والمسلمين والحضارة الإسلامية منذ أوائل القرن التاسع عشر إلى منتصف القرن العشرين قد تجاوزت الستين ألف مؤلّف .

أما الآثار السلبية فحدث عنها ولا حرج ، ويأتي في مقدمتها :

■ التشكيك بالوحي ، والزعم بأن القرآن من تأليف محمد ﷺ ، وأنه استمد مادته الأصلية من المصادر اليهودية والنصرانية ..

■ الطعن بالشريعة وأصالة الفقه الإسلامي ، والقول بأن أصوله رومانية !!

■ إحياء النعرات القومية بهدف تفتيت الأمة .

المستشرقون المعاصرون

ما تزال الحركة الإستشراقية في ازدهار ، لأن الحكومات والمؤسسات الاقتصادية والمراجع الدينية في الغرب تتفق على مراكز البحث الإستشراقي في الجامعات وغيرها بسخاء منقطع النظير ، واللافت للنظر أن ظاهرة جديدة قد برزت في ساحة الإستشراق، وهي التي تتعلق بالمستشرقين الجدد الذين أقاموا صروحاً جديدة لدراسة الشرق باسم " مراكز البحوث الاستراتيجية " ، ولا يخفي عدد منهم تعامله المباشر مع أصحاب القرار السياسي والاقتصادي ، بل إن عدداً من هذه المؤسسات قد أقيمت في البلاد الإسلامية ، وأسندت مهامها إلى أفراد من أبناء المسلمين !! .

وسأضرب مثالين عن المستشرقين الجدد . ومنهما يظهر دور مؤسسات الإستشراق في الفكر والسياسة :

❶ الأصولية في العالم العربي : عنوان كتاب نشره ريتشارد هرير دكمجيان - وهو أمريكي من أصل سوري أرمني - عام ١٩٨٤م وقام بترجمته إلى العربية والتعليق عليه عبد الوارث سعيد . وفي مقدمة الكتاب يقول ريتشارد : « شهد العقد الأخير - السبعينات - زيادة في الوعي الإسلامي وعمقه في المجتمعات الإسلامية في كل أنحاء العالم ، وكانت مظاهر انبعاث الروح الإسلامي روحية واجتماعية واقتصادية وسياسية في آن واحد .

وكما حدث في القرون الماضية ، كانت أسمى ملامح الانبعاث المعاصر هي العودة إلى الجذور الإسلامية - إلى أصول العقيدة - كما تلقاها وحياً وطبقها النبي محمد ﷺ .

إن أول ما تهتم به هذه الدراسة هو اختيار الجذور والأنماط التاريخية للانبعاث الإسلامي ثم الأشكال التي ظهر بها في إطار أزمة المجتمع الإسلامي المعاصر ..

اعتمدت الدراسة ، قدر الإمكان ، على المصادر العربية الأصيلة ، ومن بينها كثير من المنشورات السرية والنشرات والرسائل ، كما أنها تقدم بعض الدلائل الواقعية على الحركة الأصولية من خلال تحليل إحدى وتسعين جمعية أو جماعة إسلامية ، قام بجمع المادة العاملون في " مركز هيئة البحث والتنمية " . هذه الدراسة التي بدأت على شكل تقرير لحكومة الولايات المتحدة ، أعيد فيها النظر ووُسِّعت بشكل كبير لتشمل إطاراً للعمل شاملاً وتحليلياً ، وتضم معطيات جديدة عن التطورات الأخيرة في المنطقة العربية » (ص : ١٣)

وفي بحث " الأهداف التحليلية " التي ترمي إليها الدراسة يقول ريتشارد :

« تستهدف هذه الدراسة جمع وجهات النظر الإسلامية والغربية وغيرها حول الأصولية الإسلامية ، للوصول إلى فهم متوازن لمظاهرها في على العالم العربي ، ومن أجل هذه الغاية توزَّع البحثُ على نطاق واسع ليشمل : العوامل التاريخية ، والدينية ، والنفسية ، والسياسية ، والاجتماعية والاقتصادية التي تؤثر في الظاهرة الأصولية.

وسوف يركّز التحليل على فحص أحد عشر موضوعاً بارزاً :

١- المرتكزات الدينية والتاريخية للأصولية الإسلامية وأنماطها الدورية

٢- بواعث الأصولية الإسلامية المعاصرة .

٣- التركيبة الاجتماعية والنفسية للفرد الأصولي .

٤- عناصر المذهبية " الأيديولوجية " الأصولية الإسلامية .

٥- أساليب وأهداف الدعوة الإسلامية المذهبية (الأيديولوجية) .

٦- مؤشرات السلوك الأصولي .

٧- تصنيف إحدى وتسعين جماعة أصولية .

٨- قيادة الحركات الإسلامية .

٩- ردود فعل الدول تجاه الأصولية .

١٠- التطورات المتوقعة للحركات الأصولية في ظروف العرب المتضاربة .

١١- الأصولية الإسلامية كتحدٍ للمصالح الأمريكية » . (ص : ٢٣)

وبعد جولات في المجالات التي ذكرها ريتشارد يصل إلى القسم الثالث من الكتاب، وهو بعنوان : " الأصولية الإسلامية : النتائج والتوقعات " ونبرز منه هنا ما ذُكر تحت عنوان : " الأصولية الإسلامية ومصالح الولايات المتحدة " ، يقول ريتشارد :

« ترى النظرة الأصولية أن ثمة ثوابت معينة في السياسة الخارجية الأمريكية تضع الولايات المتحدة على طريق المصادمة مع الحركة الإسلامية ، وتشمل ثوابت هذه السياسة ما يأتي :

١- دعم الأنظمة العربية ذات التوجه العلماني بسبب توجهها الموالي لأمريكا .

٢- الدعم الفعلي غير المشروط لإسرائيل ، وهذا يطيل أمد الضعف العسكري العربي الذي يتزايد نتيجة الحضور العسكري الأمريكي في عدد من الدول العربية .

٣- الإصرار على سياسات اقتصادية تزيد من سوء توزيع الدخل في البلاد العربية .

٤- انتشار القيم وطرائق الحياة الغربية-الأمريكية التي تعتبر مخالفة للإسلام .

ليس ثمة احتمال أن يدخل في المستقبل المنظور تعديل ذو قيمة على المعتقدات الإسلامية السابقة ، وعلى هذا ، فإن منطق الواقع يفترض الإصرار على استمرار الصراع بين مصالح الولايات المتحدة والأهداف الإسلامية » (ص: ٢٣٩-٢٤٠) .

وبعد أن يشير إلى إمكانية تعديل النظرة العدائية ينصح المؤلف بما يراه مناسباً للاستراتيجية الأمريكية ، فيقول :

« إن هناك حاجة إلى إتباع خطين من السياسة كردود فعل قابلة للنمو تجاه الأصولية الإسلامية من أجل حماية المصالح الحيوية للولايات المتحدة في المحيط الإسلامي- العربي :

١- تسوية سلمية للصراع العربي- الإسرائيلي ، تؤمن قيام كيان فلسطيني مع وجود إسلامي واضح في الأماكن المقدسة في القدس .

٢- تشجيع أمريكي واضح ودعم للإصلاحات الاجتماعية والسياسية ، خاصة في الدول الموالية لأمريكا ، للوصول إلى مستوى أعلى من العدالة الاجتماعية والاقتصادية ولحماية حقوق الإنسان .

إن إحراز تقدم ملموس في هذين البعدين من السياسة سوف يقوي إلى حد بعيد شرعية الصفوة الموالية لأمريكا .. وسوف يوجد جواً ملائماً لظهور نخبة إصلاحية » (ص : ٢٤٠) .

❷ خالد دوران : اسمه الأصلي " ديتليف هويسلر " يحمل الجنسية الألمانية ، ويقول إنه مسلم !! ، درس الإسلاميات في هامبورج ، وزار عدداً من البلدان الإسلامية، وعمل في معهد الإستشراق في مدينة هامبورج ، ثم انتقل إلى الولايات المتحدة الأمريكية ليعمل خبيراً في شؤون الحركات الإسلامية لصالح جامعات واشنطن وفيلادلفيا . أصدر كتاباً بعنوان " الإسلام والتطرف السياسي " ومما امتاز به تهجمه على الحركات الإسلامية ، وغمزه بما يسميه " الإسلام السياسي " وهذا الذي جعله مرجعاً لدى جهات أمنية أمريكية وأحزاب كارهة للمسلمين في الغرب !! .

قصة المركز الإسلامي في آخن مع دوران :

وقصة هذا المستشرق مع المركز الإسلامي في آخن تلقي الضوء على تيار من " الخبراء " الذين تلجأ إليهم مراكز القرار والإعلام الغربية في الحديث عن الإسلام والمسلمين ..

• في ١٩٨٧/٨/٧م وافق المجلس البلدي لمدينة آخن بالإجماع على بناء المركز الإسلامي الجديد ، وكان على المركز الإسلامي أن يطمئن إلى تقبل المدينة للمشروع ، وبخاصة سكان الحي الذي سيقام فيه البناء ، وبعد أن توفرت الشروط الاجتماعية بدأت رحلة وضع المخططات ، وهنا بدا لحزب " الخضر " وضع العصي في عجلات العربة ، فأعلن في بيان صحفي سحب موافقته على مشروع المركز الإسلامي الجديد معللاً ذلك بمعلومات وصلت إليه تشير إلى أن القائمين على المركز الإسلامي " متطرفون " !! .

• فجر موقف حزب الخضر في الائتلاف المسيطر على بلدية آخن مشكلة ، واقترحوا لزيادة المعلومات في الموضوع تنظيم محاضرة يدعى إليها خبير في الشؤون الإسلامية وواقع المسلمين ، فوقع اختيارهم على خالد دوران ، وكانت محاضرته يوم ١٩٩٠/١٠/١٦م رداً على سؤالين :

١- هل الإسلام دين متطرف ؟

٢- فإذا كان الجواب : لا ، الإسلام دين عظيم .. فهل المركز الإسلامي في آخن متطرف ؟

وكان جواب المحاضر على النحو الآتي : ذكر أن الإسلام عقيدة وشريعة ، وأدخل في العقيدة الثوابت : (مسائل الإيمان ، والشعائر التعبدية ، والقيم الأخلاقية) وأثنى على هذا الجانب ، وعندما تحدث عن الشريعة تركز كلامه على الآتي :

- الشريعة عبارة عن الأحكام التي كانت جواباً على حوادث وقعت في زمن النبوة وجاءت متأثرة بالجزيرة

العربية وبالتطور الاجتماعي والقانوني في تلك المرحلة .

- والمشكلة تكمن في أن علماء المسلمين رأوا أن تلك الأحكام واجبة التطبيق في كل زمان ومكان ، وكان الأولى أن يتمسكوا بمقاصدها لا بصورتها . وفي الشريعة أحكام لا تتلاءم مع التطور الإنساني ، لأن فيها (القتل ، والجلد ، والقطع ، والرجم ...) وهذه الأحكام تربي فيمن يرون وجوب تطبيقها قسوة وامتهاناً للإنسان !!

فالشريعة في نظر دوران متطرفة !!

وبناءً على ما سبق أكد دوران أن كل من يؤمن بتطبيق الشريعة لا شك أنه متطرف ، وبما أن المركز الإسلامي في آخن يؤمن بتطبيق الشريعة فهو متطرف !! .

كان رد المسلمين المشاركين في المحاضرة واضحاً حيث بينوا :

- إن أهم ما يفخر به المسلمون كون الإسلام عقيدة وشريعة ، وأن الشريعة مصدر هام للأحكام البشرية باعتراف المؤسسات القانونية كمحكمة العدل الدولية .
- إن خطورة كلام دوران تكمن في كونه موجهاً لأناس ليست لديهم معرفة بالإسلام تمكنهم من تقدير مكانة " الخبراء !! " الذين يُظهرون العلمية وهم بعيدون عنها .. كالسيد خالد دوران !! .
- إن الأحكام التي تجرأ دوران وأصدرها على الإسلام والمسلمين تنبع من ثقافته الغربية وموازينه التي تحتاج إلى حوار .

• في ١٩٩٣/٢/٢٦م وقعت حادثة تفجير في مركز التجارة العالمي بنيويورك، ووجهت الاتهامات إلى مجموعة من المسلمين ، وفي ١٩٩٣/٤/٦م نشر خالد دوران مقالاً في صحيفة فرانكفورتر - ألجماينة حول الحادث ومن يقف وراءه ، وكان من جملة ما افتراه زعمه بأن المركز الإسلامي في آخن ضالع في العملية ، لأن أحد المتهمين - محمود أبو حليمة - كان قد أقام في آخن ! ، وتم تحويل مبلغ من دوسلدورف إلى أحد المتهمين ، ويجزم بأن هذا المبلغ قد أرسل من طرف المركز الإسلامي في آخن .

رفع المركز الإسلامي في آخن الأمر إلى القضاء ووجِّهت الدعوة إلى خالد دوران عن طريق السفارة الألمانية بأمريكا لحضور المحاكمة ، ولكنه تجاهل الموضوع ، وفي ١٩٩٣/١٠/١٢م أصدرت المحكمة حكماً غيابياً بينت فيه عدم صحة ما ادعاه خالد دوران ، وفرضت عليه غرامة مالية ، ونص قرار الحكم على إيقاع العقوبة بدوران إذا عاد لمثلها ، وعلى وجوب نشر قرار المحكمة على نفقة المحكوم عليه .

• ودار الزمان دورة .. وهزت الدنيا تفجيرات نيويورك وواشنطن في ٢٠٠١/٩/١١م ، وتهيأت ظروف مثالية للخبراء أمثال خالد دوران !! فسارع المذكور إلى تجديد هجومه على المركز الإسلامي في آخن ، وبخاصة عبر الانترنيت ، وحركت أباطيله مجموعة من مراسلي المحطات التلفزيونية الذين سارعوا إلى محاولة تشويه سمعة المركز الإسلامي والزعم بأنه موئل التطرف والإرهاب !! .

والجدير بالذكر أن عدداً من المؤسسات الإسلامية في أمريكا تخوض معركة مع المدعو خالد دوران ، نظراً لاتهاماته وجرأته الجاهلة في تشويه صورة المسلمين .

من هذين المثالين عن المستشرقين المعاصرين يتضح أن هناك جيوشاً من المؤسسات والأفراد الذين نذروا أنفسهم لدراسة الإسلام وتفاعل المسلمين مع الواقع ، وأن عامتهم يقدمون خدمات مباشرة وغير مباشرة للجهات التي تعمل على :

- تشويه الإسلام والحط من المسلمين في عيون الغربيين ، والأهداف من هذا الهجوم واضحة !! .

- صياغة صورة الشرق وفقاً لتوجهات الاستراتيجية المقررة لدى مراكز القوة في الغرب ، فصورة الشرق لدى الغربيين ينبغي أن تستجيب لمخططات السياسة الغربية ، كما يؤكد ذلك إدوارد سعيد في كتابه القيم " الإستشراق " .

- تزويد أصحاب القرار بالمعلومات والتحليلات والدراسات التي تمكنهم من رسم مخططات الاستغلال والإخضاع والهيمنة !!

هذا ، وإن تطور وسائل الرصد والمتابعة لتوحي بأن الفكرة الإسلامية تتجدد في حياة المسلمين ، وستكون خيراً وبركة على الناس أجمعين ، وعلى حملة رسالة الإسلام العظيم أن يتابعوا طريق الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وأن يوقنوا بوعد اللّه تعالى : { هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ } [الصف : ٩] .